الكتاب الأول

المغلوبون على أمرهم

الفصل الأول

مَدنيَّة الأتروسك ETRUSQUES

شعور الانسان وتحسسه بامور السياسة يفوق كثيراً تحسسه واهتمامه بالمسميات الجغرافيـــة. لنأخذ ، مثلاً ، اغريقياً متوسط الثقافة من معاصري بركليس . فهو يعرف معرفة تامة ان الدول والممالك تنمو وتتطور ، ثم تهرم وتشيخ وتنقرض عن وجه الارض . فهو يسلم مقتنعاً ان بالامكان قيام سيطرة على البحر المتوسط قوامها جنود وموظفون اداريون من اصل ايطـــالي ، مثلاً . الا ان صاحبنا هذا يجهل تماماً ان المصطلحات الجغرافية ومدلولاتها عرضة للتبدل والتغير والتطور. فاذا ما قام احدهم وقال له: ان بعد اربعة قرون تطلق كلمة ايطاليـــا ، على شبه الجزيرة التي تقع بين البحر الادرياتيكي والبحر التيريني وجبال الألب ، لكان وقع هذا الكلام عليه اشد من وقع الصاعقـــة . فالاغريق عرفوا هذا المصطلح الجغرافي واستعملوه بعد ان تسلموه من احدى اللهجات المحكية الوطنية المستعملة في هذه الرقعة من الارض ، دون ان نعتمد في اثبات ذلك مصدراً اصيلاً نعول عليه ونأتم به . الا ان هيرودوس اطلق هذا اللفظ الجغرافي ، لدى استعماله له ، على مقاطعة كالابريا ، دون سواها . وليس من الصعب ان نتتبع توسع مدلول هذا المصطلح ، في المجال اليوناني اولاً ، ثم في المجال الرومـــاني ، بالنظر لصروف الفتوحات والمؤسسات الرومانية المتتالية.. وقبل عهد يوليوس قيصر بقليل ، اي بعد منتصف القرن الاول، قبل الميلاد، اطلقت كلمة « ايطاليا » على شبه الجزيرة المعروفة بهذا الاسم اليوم ، بما فيها سهل البو *Pô* ، حتى حدود جبال الألب.

وهذا التطور في مدلول المصطلح المذكور يمكن اتخاذه رمزاً . ففي الوقت الذي بلغت فيه الحضارة اليونانية اوجها من الازدهار والتجلي ، لم تكن ايطاليا بعد « تعبيراً جغرافياً » . فقد استوطنتها شعوب وقبائل مختلفة الاصل والعرق ، تتكلم لهجات متباينة اصلاً وفصلاً، وتسير على نظم حضارية متباعدة. فالى الحين الذي جعلت روما حقيقة واقعية لهذه البلاد، لم يكن لايطاليا سوى وجود فكري او عقلي ، في عرف الاغريق ، حتى ان الايطاليين انفسهم الذين لم يكونوا

ليعنوا الا بشؤونهم الخاصة، ليكونوا ليفقهوا الجغرافية بلادهم معنى ولا يرون لها اية وحدة طبيعية.

الا ان شعباً واحداً من شعوب تلك البلاد، لعب دوراً بارزاً في تاريخها. فكل الدلائل تشير الى ان حضارة زاهية قامت فيها وازدهرت ، وان فكرة وحدة البلاد او توحيدهـــا قد تكون جالت في خواطر هؤلاء القوم واتجهوا في تحقيقها الاتجاه السوي . فما كان يظل القرن الرابع قبل الميلاد حتى رأينا الاتروسكيين يخلون مسرح التاريخ ويغيبون عنه الى الابد .

١ ـ تاريخ ايطاليـــا القديم

مشكـــلات غامضة متشابكة

قضية سكان شبه الجزيرة الايطالية وعهد ما قبل التاريخ فيها، هي من الامور التي تثير مشكلة دقيقة ليس هنـا مجال البحث فيهـــا طويلاً . فبقطع النظر عن المعلومات الضعيفة الوجيزة، المتضاربة فيما بينها والمستمدة من مؤرخي اليونان ، علينا ان نعول هنا على ما يمدنا به علم فقه اللغة وعلم الآثار الايطالية . الا انها معلومات اعجز من ان تزيل الابهام والغموض الذي يكتنف هذه القضية .. ففي الوقت الذي نرجو ان نفيد كثيراً ، في المستقبل، من علماء الفيلولوجيا ، نرى ، على عكس ذلك تماماً ، علمـــاء الآثار يزيدون الامور تعقيداً بالآراء المتضاربة التي تثيرهـــا نتائج الحفريات والتنقيبات الاثرية التي يقومون بها والتي بنى على نتائجها العلماء الآمال العريضة . لا مراء انهم عولوا كثيراً على الطقوس الدينية ومناسك العبادة، واتخذوا من مراسم دفن الموتى وحرق جثثهم دليلاً مميزاً لبعض الشعوب ولبعض الحضارات . ولما كنا هنا ، والحق يقال ، امام جهل فاضح للمناطق والادوار التاريخية المتعاصرة ، كان لا بد لنا من ان نقتصر في حديثنا ، على العادات المعمول بها ، هـــذه العادات التي تخضع لتقلبـــات وتغييرات من الصعب تعليلها ، وهي تغييرات استمرت حتى بلغت صميم الامبراطورية الرومانية ، حيث تغلبت عادة دفن الموتى وساد العمل بها .

فسيفساء عنصرية

والشيء الوحيد الثابت والاكيد معاً، هو تنوع عناصر السكان في البلاد، الامر الذي يحدو بنا للنظر اليه نظرة عجلى دون ان نتعرض بكلمة للاتروسك وللقضايا التي يثيرها الوجود الاتروسكي .

نجد الى الشمال الغربي من ايطاليا، والغرب الاوسط من صقلية وجزيرتي كورسكا وسردينيا، عناصر اثنوغرافية قديمة محافظة . ومن الحكمة وحسن الفطن ان ننعتها اجمالاً بـ « شعوب البحر المتوسط ». وبالرغم من المسميات المختلفة التي اطلقت عليها عبر التاريخ القديم ، « كالليغوريين » الذي عرفت به الاقوام التي كانت تحتل ، حتى اواسط القرن السادس قبل الميلاد، منطقة اوسع بكثير من المقاطعة المعروفة اليوم بمقاطعة « ليغوريا » اذ كانت تشمل جانباً كبيراً من ايطاليا الشمالية حتى حدود جبال الألب ، يبدو من الراجح، ان هنالك وشائج عرقية بين هذه الاقوام و « الايباريين » دون ان يتمكن علماء اللغات الذين يعنون بدراسة الاسمـــاء ، من الوصول الى نتائج تحوز الاجماع .

وهذه الجماعة البشرية التي هي ولا شك، اقدم العروق البشرية التي أهلت بها ايطاليا، لا بد ان تكون اكتسحت ايطاليا برمتها . والظاهر انها اضطرت الى الانطواء على نفسها والانكماش الى الغرب امام ضغط الهند الاوروبيين الذين كانوا يسيطرون : على الشمال الشرقي والقسم الاوسط، والجنوب، من شبه الجزيرة الايطالية ، كما سيطروا على النصف الشرقي من جزيرة صقلية . وقد اصطلح المؤرخون على تسمية هؤلاء القادمين بـ « الايطاليك »، بالنظر لاتساع رقعة سلطانهم . فالهند الاوروبيون ، مصطلح فيلولوجي او ألسني، يتميزون عن اسلافهم الذين حلوا محلهم ، بالوشائج التي كانت تشد اللهجات التي كانوا يحكونها . فبدلاً من ان يكوّنوا كلاً متجانساً، الفوا عدداً من البطون والافخاذ ، بينهم : الفينت ، والأمبريون ، والسابنز واللاتين والسمنيين وغيرهم . ونرى هؤلاء الاقوام في اواخر الألف الثاني ، يستقرون نهائياً حيث نجدهم منذ ظهور الطور التاريخي، الا انهم دخلوا ايطاليا بموجات متتالية ولربما دخلوها من نواح متعددة . وبعض هذه القبائل استقرت على الساحل الشرقي، بينها وبين الايليريين اواصر متينة تحملنا على الاعتقاد انها انما جاءت عبر البحر الادرياتيكي . ويدور جدل بين المؤرخين ، حول ما اذا كان دخل البلاد، من الطريق ذاته، اقوام اخرى، وما عسى ان تكون ، ولربما دخلوها من الشمال عبر مقاطعة فريول ، او من الشمال، عبر جبال الألب .

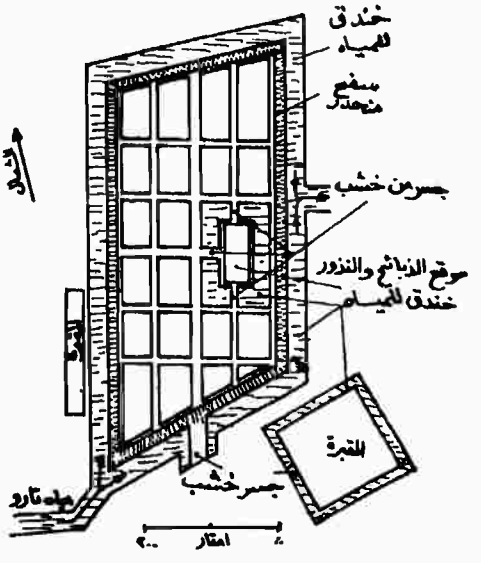

الشكل ١ ـ مخطط تيراماريه دوكستيلازو دي فوتتسلاتو في ولاية بارما ، وفقاً للحفريات التي جرت في اواخر القرن التاسع عشر والتي يتضارب العلماء اليوم رأياً في تعويلهم عليها.

والى جانب هذه العناصر البارزة من سكان البحر المتوسط، والايطاليك، انضمت فيما بعد اقوام اغراب غزت البلاد بعد حين . ويرى المؤرخ اليوناني توسيديذس ان قبائل « الأليم » ، التي استقرت الى الغرب من جزيرة صقلية هي اقوام أسيوية هاجرت اليها بعد حروب طروادة وسقوط إلْيُون. وعلى السواحل الشمالية والغربية من صقلية انشأ الفينيقيون مستعمرات صار امرها فيما بعد، الى ذراريهم من القرطاجيين ، منها مثلاً : بانورموس (باليرمو) . ومنذ القرن الثامن ، اخذ الاغريق ينشئون مستعمرات لهم ومدناً على سواحل ايطاليا الجنوبية التي عرفت فيما بعد باسم «اليونان الكبرى» وذلك في شقة من البلاد امتدت من مدينة كوم شمالاً، الى مضيق أوترانت جنوباً ، كما انشأوا مدناً عديدة لهم على ساحل جزيرة صقلية الشرقي والجنوبي، ثم جاءت قبائل غالية استقرت افخاذها في سهل نهر البو .

اولى هذه الحضارات حضارة التيرامار

كم كنا نتمنى لو نستطيع تحديد كل من هذه الحضارات التي انشأتها كل من هذه الشعوب. ولما كانت هذه الشعوب لم تعش منعزلة ، فقد خضعت لمؤثرات شتى تداخلت وتشابكت بعضاً ببعض ، يصعب تحديدها وتبيين مقوماتها ، اعاقت تطورها الداخلي واخرته . فبدلاً من ان تساعد الحفريات الاثرية على إلقاء اضواء كاشفة ، زادت الامور تعقيداً بما أثارته من مجادلات ونظريات متضاربة. وهنا ايضاً ، علينا ان نقنع بعد الكثير من التضحيات ، ببعض امثلة نسوقها نموذجاً دون ان نحاول عبثاً رسم توافق دقيق بين شعب معين من هذه الشعوب وبين الحضارة التي انشأها .

يتميز تاريخ ايطاليا ، في العصر الحجري الجديد ، باقبال الناس على النحاس الامر الذي دعا المؤرخين الى نعت هذه الحقبة بالعهد الحجري النحاسي . ولم يبزغ مطلع الألف الثاني حتى برز معه استعمال الشبهان فاتاح ظهور ما يسميه المؤرخون بحضارة التيرامار (اي التربة الغُضارية) التي تتميز باستعمال الانسان للاوتاد المنصوبة في بطن التربة لتقويتها وتدعيم الاكواخ المصنوعة من الطين ، تقليداً او تشبهاً بالدعائم المائية المنصوبة في البحيرات . وتوصل العلماء في اواخر القرن التاسع عشر الى الكشف ، في بعض الاماكن ، عن تخطيط رتيب لبيوت السكن — وهي نظرية يتنكر لها العلم اليوم — يحيط بها من الخارج خندق وسفح منحدر يستدير حولها ، مع تبليط للشوارع وايجاد ساحة او باحة للاجتماعات العامة ، واقامة مراسم العبادة عليها .

وكان ممثلو هذه الحضارة يعتمدون في اقامة هذه الانشاءات ، على الفؤوس والمناجل والمقاشط والسيوف . وازدهرت حضارتهم في سهول لمبرديا ، وفي الجنوب من سهل البو . ويرى البعض ان هذه الحضارة نقلها فاتحون غزوا البلاد من الشمال . إلا ان غيرهم يرى ، بعد ان شهدوا معالم حضارات اخرى من العصر الشبهاني في ايطاليا ، ولا سيما معالم الحضارة الابنينية (نسبة الى جبال الابنين *Apennin*) بأنها حضارة محلية يبرز فيها بوضوح الطابع الغربي قامت في سهل يخترقه العديد من الانهر التي تردفه باستمرار بالرواسب والطمي .

الحضارات الفيلانوفية

ثار مثل هذا الجدل بين العلماء ، حول تباين معالم الحضارات الحديدية التي قامت في مطلع الألف الاول قبل الميلاد . فراح البعض يردها الى شعوب وقبائل جديدة ، مستشهدين على ذلك بعدم عثورهم على دور وسيط من البرونز ، كما هي الحال مثلاً في مقاطعة اللاتيوم ، أو بروز مفاجيء لعنصر الحديد . وقد لوحظ ان هنالك اماكن تم فيها الانتقال من معدن الى آخر ببطء كلي ، انما باستمرار موصول ، الأمر الذي يتنافى مع افتراض غزو جديد .

ولعل ابرز الحضارات الحديدية واظهرها على الاطلاق ، هذه الحضارة المعروفة بـ « الحضارة الفيلانوفية » نسبة لموقع يقع على بعد ٨ كلم من مدينة بولونيا . ولعل النموذج الذي يمثل هذه الحضارة خير تمثيل هو جرة العظام المخروطية الشكل المزدوجة ، وهي تتألف اصلاً من وعائين من الخزف مقفلين من الاسفل . والغالب في صناعة خزفيات هذه الحقبة ، ان الجرة تصنع احياناً من البرونز او الشبهان . فمع ان هذه الحضارة عرفت الحديد وتدبرته واستعملته ، فقد آثرت

عليه الشبهان ، فاقبلت على استخدامه والتعويل عليه بعد ان تفننت في طرقه وترقيقه. والشاهد على استعماله بكثرة وشدة الاقبال عليه ، هذه الارقـــام الثلاثة نذكرها هنا . فقد كشفت حفريات قامت بالقرب من بولونيا ٤٠٧٣ فأساً و ١٠٧٦٨ اداة اخرى ، كلها من الشبهان ، يزن مجموعها ١٤١٨ كيلوغراماً . وهـــذه الحضارة قامت وازدهرت في اواخر القرن التاسع قبل الميلاد ، ثم اخذت تتطور حتى اواخر القرن السادس ، منتشرة في جميع انحاء ايطاليا الشمالية ، الامر الذي حدا ببعض علماء الآثار الى اعتبارها حضارة شمالية ، فردوها الى حضارة «التيرامار» وحضارة ايطاليا الوسطى . فليس بينها وبين حضارة الاتروسك التي انبعثت عنها أي تقاطع .

بعض مميزات الحضارات الايطالية

وهكذا برزت امامنا الحضارة الفيلانوفية التي تفضي بنـــا الى الحقبة التاريخيـــة فنلجها على مصراعيها . وكذلك قل عن الحضارات الحديدية الاخرى التي تتجلى امامنا ، من وقت لآخر بمعالم مختلفة ، متباينة . اما سماتها الخارجية فقلما تبرز لنا واضحة ، جلية الا في حالتين لا غير .

تبدو الاولى في هذا العرف المتبع ، المعروف «بالربيع المقدس» وهي عادة درج الناس على اتباعها في الازمات الشديدة وايام الضيق ، اذ ينذرون فيها للآلهة ، مواليد الناس والحيوانات الأليفة التي تولد خلال فصل الربيع الطالع. ووفاء النذر كان مدعاة ، كما هو مظنون ، لعـــادة الذبيحة وتقديم القرابين . انما كان يجري استبدال الذبيحة بفكاك الجيل المولود اثناء الربيع المقدس ؛ وفصله خارجاً عن القوم ، عند بلوغه الرشد وطرده خارج القبيلة ، وقطع كل صلة له بها. وكان من جراء الاخذ بهذه العادة ان طلعت جاليات صممت على شق طريقها الى الحياة واقتطاع محل لهـــا تحت الشمس ، مهما كلفها الامر . فقد عمل بهذه العادة في ايطاليـــا بين قبائل السمنيوم الجبليين وبين السابنز ، ومنهم امتدت الى الرومانيين فاقتبسوها ، وعملوا بها على نطاق ضيق حتى القرن الثاني قبل الميلاد ، فاننا نجدها مرعية الاجراء عند الكلتيين في اوروبا الوسطى . ولذا لا بد من القول بوجود عادة من هذا النوع غلب الاخذ بها عند بعض الاقوام الهند الاوروبية .

ويستدل من كتابة اثرية مرقومة على احد الاعمدة المحيطة بـ « جندي كابسترانو » ليس هنا مجال الاستطراد في شرحها وتفصيلها ، ان سكان البلاد الاصليين كانوا يعرفون الكتابة ويجيدونها في الوقت الذي تم فيه نحت هذا التمثال ، في النصف الثـــاني من القرن السادس ، وهي كتابة اخذت ايجديتها من الايجدية اليونانية . ويكشف لنا هذا التصوير البدائي الجـــاف ، ولو من بعيد ، وبشكل ملموس ، تأثره بالفن الاغريقي القديم. ففي كلا الحالتين نرى المدنية الهلينية بحاجة ماسة للاتروسكيين لتنتقل بواسطتهم الى قلب شبه الجزيرة الايطالية . ومهما يكن من الامر ، فلا بد من ان ننعم النظر ملياً في الاثر الذي خلفته وراءهـــا حضارات شرق البحر المتوسط في سكان ايطاليـــا .

حضارات شرقي البحر المتوسط وايطاليـــا

قامت منذ عهد بعيد علاقات وطيدة متنوعـــة ، بين طرفي البحر المتوسط . فان لم تترك حضارة كريت القديمة اثرها في صقليـــة ، فقد خلفت فيها تجارة المينيين بعض المعالم . وتزعم بعض الاساطير

الاغريقية ان الملك مينوس، لقي حتفه في صقلية ، عندما كان يقوم بحملة حربية عليها . والفينيقيون انفسهم نقلوا الى شواطىء البحر المتوسط الغربية ، مع ما نقلوا من محاصيل الشرق ، منتوجات صناعاتهم التي حرصوا على تنفيقها وبيعها من سكان تلك الاقطار النائية . والتطور التقني الذي عرفته المدنيات الايطالية في العصر الشبهاني يبقى سراً مغلقاً واحجية محيرة لولا تأثر هذه المدنيات بصناعات الشرق . وزاد اثر هذه العوامل عمقاً عندما راح القرطاجيون والاغريق ببسط نفوذهم على تلك الشواطىء، بما اسسوا عليها من مستعمرات وما انشأوا فيها من جاليات ، فنشطت بالتالي المبادلات والمقايضات التجارية ، وراح سكان ايطاليا في الجنوب والوسط ، يقبسون ، اسوة بالاتروسكيين، وعلى نطاق واسع ، من حضارات الشرق ، فتزداد طاقات مدنيتهم خلقاً وابداعاً . الا انهم نقلوا عن الاغريق اكثر مما اخذوا من القرطاجيين الذين اقتصر دورهم على النقل والسمسرة . وقد اخذوا بروعة الفن الروماني الذي اثر فيهم عميقاً وهيأهم لاقتبال المؤثرات الدينية . ففي الايجديات الايطالية شهادة عدل ودليل ساطع على بعد غور الاثر الاغريقي فيها . فعبرت الايجدية الفينيقية اليهم عن طريق الايجدية اليونانية . ومهما يكن من ضخامة هذه الاقتباسات واتساعها فقلما بلغت حد التمثيل والاستمراء . جاء القرطاجيون والاغريق بمدنيات تفوق بكثير الحضارات الوطنية التي تفتحت براعمها في ايطاليا قديماً ، وقد هزتهم مشاعرهم الوطنية فأبوا ان يرعوها ويخلصوا لها السعي الحميد لتأمين إشعاعها، شاهد على ذلك، عدم اكتراثهم بهذه المؤثرات واللقاحات التي تبدى خطها الدقيق لباحثين عنيدين ، ورفضوا ان يبذلوا اي جهد في سبيل نشر هذه المدنيات مؤثرين ابقاء البرابرة في جهلهم يعمهون، ليسهل استعمالهم شغيلة وسخرة . والحق يقال ان وجودهم في صقلية لم يبق دون اثر . فقد راح السكان البدائيون في غربي هذه الجزيرة ، ولا سيما قبائل الأليم بينهم، وهم أسيويو الجذر، يخضعون في بادىء الامر ، لمؤثرات الحضارة البونيقية ، ثم لم يلبثوا بعد لأي من الزمن ، ان تأغرقوا ، اسوة بسكان شرقي الجزيرة . ومرد هذا المسلك ينهجونه، انعزالهم في جزيرتهم، وإقبالهم طوعاً واختياراً ، على مشاركة الاغريق والقرطاجيين ، الحروب التي قاموا بها ، ضد غزاة اغراب . ونشهد شيئاً من هذا يتم في شبه الجزيرة الايطالية . فبقطع النظر عن الاتروسك الذين اشتهروا بمنافستهم للاغريق وبعدائهم الشديد لهم ، لم نر شعباً واحداً بين الشعوب الايطالية يتنكر للغته الام او للغته القومية ، كما اننا لا نرى شعباً واحداً منهم، يتنكر لمنظماته الاجتماعية ونظمه الدينية والعقائدية، ويجحد الروح الوطنية فيه . فلم تصبح ايطاليا يوماً بالنسبة للاغريق، ما كانت لهم آسيا الصغرى من قبل .

انحطاط المستعمرات اليونانية

ولذا تم المقدور ووقع ما لا بد من وقوعه دون ان يترك ذلك على قرطاجة نفسها اي اثر يذكر ، ما لم تكن انشأت لها موطىء قدم في شبه الجزيرة الايطالية . فلم يلبث اغريق اليونان الكبرى ان تعرضوا لضغط شديد من قبل الايطاليك . فبعد غلبتهم على الاتروسك رأوا انفسهم وجهاً لوجه مع الشعوب القاطنة الى

الجنوب من سلسلة جبـال الابنين ، الذين اشتد منهم الساعد وقويت شوكتهم وأصبحوا مفزعة لجيرانهم ، اثر النجـاح الذي لاقوه ضد الاغريق من سكان صقلية . فبعد ان عملوا مرتزقة في جيوش الاغريق ، انتظموا كتائب مدربة استطاعت ان تملي ارادتها على أسيادها . فقـد قام مرتزقة المامرتين – عبدة الاله مامرتوس (اله الحرب مارس) بنهب مدينة مسينا ، عام ٢٨٨ ، واتخذوا منها دار سكنى لهم . وكان هؤلاء المرتزقة ، على الغالب ، من قبائل السمنيين ، جاؤوا صقلية في خدمة سيراقوزة والعمل في جيشها . وكانت مدينة تارنت تعاني ، اذ ذاك ، الامرين من عنفوان جيرانها وعنتهم ومطامعهم العريضة ومعاملاتهم السيئـة . وهكذا بدت المستعمرات والجوالي الاغريقية في الغرب ، أدنى من قاب قوسين الى الزوال والاضمحلال ، بعد ان ضعف شأنها في ايطاليا من جراء الحروب الضروس التي خاضت غمارها في صقلية ضد قرطاجة من جهة ، وخلال المنازعات الدامية التي أقامت هذه المستعمرات وأقعدتها بعضاً على بعض ، فأنهكتها وجعلتهـا لقمة سائغة في فم روما ، فبسطت عليها بعد حروب طويلة ، سيطرتها المنقذة وسلامها المنعش .

وقد عرفت هذه الجوالي الاغريقية عهداً يذكر من الازدهار السياسي والثقافي ، فساهمت في القرن السادس ، بصورة مجدية ، باعلاء ونشر الحضارة الهلينية من الوجهتين الفنية والفكرية . ففي مطلع الجيل الخامس قبل الميلاد ، إبان حكم آل دايونيذس ، وخلال القرن الرابع أثنـاء ولاية دنيسوس القديم ، استطاعت سيراقوزة ان تنشىء لها نوعاً من الامبراطورية المهيبة الجانب . إلا ان طلائع الانحطاط تفشت في هـذه الجوالي ، منذ منتصف القرن الرابع . بالحقيقة ان كل شيء أغرى الاغريق بآسيا : حضاراتها القديمة ، وكنوزها المكنوزة ، والماضي السحيق للمستعمرات التي أنشأوها على سواحل البحر وكثرة الجزر المتناثرة حباتها في بحر إيجه . استطاعت كورنثس ان تنشىء مدينة سيراقوزة في صقلية ، التي بلغت من بعد الشأو وخطر الشأن ما جعل اثينا ترنو اليها ، الفينة بعد الفينة ، باشتهاء . إلا ان قيام الحواضر الاغريقية المغرية على السواحل المطلة من الشرق ، على بحر إيجه ، بينما سواحل اليونان الغربية بقيت عطلاً منها ، لم يكن من فعل القدر الغاشم ، ولا كان جذبهـا القوي من فعل الخيال . فاستمر الاغريق في تشوفهم الآسر اليها ، وفي تطلعهم نحو الشرق ، بعد ان ساهموا ، من حيث لا يشعرون ، ببعث اليقظة ونشر الوعي القومي في ايطاليا ، وعملوا على تحريك القوى والقدرات الكامنة فيها ، وهي قوى وطاقات لم تلبث ان عملت ضدهم وانتصبت في وجههم .

٢ ــ الاتروسك

كان باستطاعة القدر ان يضع ، بأسرع مما فعل ، حداً لمصير الاغريق في الغرب ، اذ لم يبلغ تأثيرهم على شعوب ايطاليا ما بلغـه من العمق على الاتروسك . فما ان اشتد منهم الساعد حتى أصبحوا خطراً يتهدد الاغريق فينذرهم بشر مستطير لم تساعد على دفعـه وتحويله عنهم ، ظروف طارئـة . حرصنا حتى الآن على ألا نستفيض بحثاً عن الاتروسك وان لا نتعرض لهم إلا لماماً .

فقد بلغت المدنية التي أنشأوها شأواً عالياً من الازدهار بزّت كثيراً ما قام من أمثالها في ايطاليا قديماً . بحيث لا مندوحة لنا الآن من درس هذه المدنية بتبسط .

مصادر البحث

لا بد لنا ان نبين هنا ، حدود المصادر التي يمكن الركون اليها والاعتماد عليها لدراسة تاريخ الاتروسك . فهي من النقص والفقر بحيث توجب التحفظ الذي لزمناه في بحثنا هذا واخذنا النفس به .

اهتم الاغريقَ والرمانيون بدرس تاريخ الاتروسك والمدنيـــة العظيمة التي خلفوها، فخصوهم بأبحاث هامة نجتزىء منها بذكر مصدرين لأصحابها شهرة واسعة، اولهما ارسطو الذي لم يغفل عن ان يخص الاتروسك بدراسة واسعة بين الشعوب المائـة والثامنة والخمسين التي تعرض لذكرها ، فخص أنظمتهم السياسية بدراسة طويلة . اما الثاني منهما فهو الامبراطور كليوديوس الذي وضع كتابه الموسوم . « حول التيرنيين » وهو كتاب يقع في ٢٠ جزء . إلا ان هذه المصادر كغيرها من الوثائق الأخرى القديمة ، عبثت بها أيدي الدهر وأطاحت بها ، ولم يبقَ مما يتعلق منهـــا بمدنية الاتروسك الزاهيـــة التي تعد أزهى وأزهر ما اطلعت ايطاليا القديمة من مدنيات، سوى نتف مبعثرة متقطعة الاوصال .

اما الوثائق الاتروسكية الاصيلة ، فهي ، على وفرتها ، لا تبل غلة ، لعدم استوائها من جهة، ولافتقارها للدقة المرجوة من جهة اخرى . فهي تتمثل بهذه الآثار العديدة التي عثر عليهـــا الباحثون والمنقبون ، وسوادها الاكبر من القبريات ، بعـــد ان اقبل علماء الآثار على نبش قبور القوم التي كانت تغص بالحوائج المنزلية ، اكثر من اقبالهم على التنقيب بين معـــالم المدن التي استوطنوها وعمروها . وبذلك اعادوا الى النور نماذج من حياة هذا الشعب في معتقداته ومناسك عبادته، وكشفوا بالتالي عما جال في خلدهم من افكار وآراء. والجانب الآخر من هـذه الوثائق التي تعود علينا بمعلومات اوثق واوسع، هي الوثائق المكتوبة، وهي كثيرة متعددة. منهـــا لفائف وعصـائب من الكتان لمومياء مصرية محفوظة اليوم في احد متاحف زغرب ، من اعمـــال يوغوسلافيا، تحمل بضعة عشرة آلاف من الرُقُم، معظمهـــا من الرقم الجنائزية والنذرية . وقد امكن قراءة هذه الكتابات بيسر لأن الابجدية الاتروسكية مستمدة من الابجـــدية الاغريقية . ولكن فك الحرف او قراءته لا يكفي وحده لتفهم النص. وبالرغم من ترجمة نحو من ٣١ كلمة هي من نُقَل الاقدمين ، وبالرغم من عثور المنقبين على بعض كتابات ثنائية اللسان مكتوبة بالاتروسكية واللاتينية، وبالرغم ايضاً من الجهود الطائلة التي بذلها فريق مجرب من علماء اللغات، لا تزال اللغة الاتروسكية للآن طلسماً وأحجية غامضة وسراً مغلقاً. ولذا لم يستطع العلمـاء ان يستخرجوا شيئاً هاماً من هذه النصوص باستثناء مسميات بعض الآلهة وبعض الاشخاص . وهذا الوضع المؤسف يوضح لنا بجلاء كم هي حدسية، النتائج التي توصل اليها علم الفيلولوجيا الاتروسكية.

قصة منشأ هذا الشعب

من هم الاتروسك ؟ هذا الشعب الذي كان يسمي نفسه : «راسنا»، وبهذا الاسم عرفه الإغريق والايطاليون . فالكلمة منحوتة من الجـــذر :

« تورس *Turs* » الذي نجهل منه المعنى الصحيح . وهذا الجذر يبرز في الكلمات : *Tyrsenoi* و *Tyrrhenoi* وهذه الكلمة لا تزال حية في الاصطلاح الجغرافي المعروف « بالبحر التيريني » . والجذر « *Tusci* » الذي يظهر في كلمة توسكانا *Toscana* و *Etrusci* . والتنويه بهـذا كله في مطلع هذا البحث يبرز جلياً الشك الذي يعتور معلوماتنا حول هذا الشعب .

فالاجوبة عن هذا السؤال المربك يمكن ردها الى ثلاثة ، إثنان منها عرضا بوضوح ، منـذ التاريخ القديم . فقد راح بعضهم ينسب الاتروسك الى شعوب شمالي اوروبا ، ممن دخلوا البلاد عبر هذا القسم من جبـال الألب المعروفة : بالألب الرّتيك . والبعض الاخرى يرى مـع القدامى من المؤرخين ان الاتروسك غزاة فاتحون خرجوا من آسيا الصغرى واستقروا بعد تطواف في ارجاء شتى من البحر المتوسط حيث حطوا رحـالهم، وذلك ربما في اواخر القرن الثالث او مطلع الالف الاول قبل الميلاد . من البديهي الا يكون بين اصحاب هذين الرأيين من يفترض فناء جذرياً او جلاء كاملاً للشعب او الشعوب الذين استباحوا باحته ، اذ ان غزواً يأتي من البحر لا يمكن ان يزحزح او يقتلع امامه سوى عدد محـدود من السكان ؛ ففرض الغزاة عندما استقر لهم الامر ، على القسم المغلوب على امره ، نظامهم السياسي ولسانهم وعاداتهم . ويرى فريق ثالث ان طلوع المدنية الاتروسكية وازدهارها انمـا هو حصيلة تطور وتدرج من الداخل بينما اخذت المدنيات الاقليمية او المحلية القائمة على سواحل البلاد، تتدرج وئيداً وتتطور الهوينا، بفضل اتصالاتها البحرية باقوام البحر المتوسط الشرقي ، مستغلة ما تفيضـه عليهم التربة من الخامات المعدنية كالحديد والنحاس . فالاتروسك ، والحالة هذه ، انما هم اصيلون بقدر مـا يمكن نعت شعوب ايطاليا قديماً بهذا الوصف ، وليسوا مطلقاً غزاة طوارىء اغتصبوا البلاد في بداءة التاريخ في شبه الجزيرة الايطالية والحقب التاريخية التي تلتها .

فكل الدلائل ، من اي نوع كانت : اثرية او لغوية ، ومن اي مصدر جـاءت : ايطالية بالطبع، او شمالية او إيجية او اسيوية حتى ومصرية، مما استشهد به المؤرخون في معرض بحثهم هذه القضية التي سلست مقاليدها بعد القرن الثاني للميلاد ، ثم عاد فارتفع الجدل حولها من جديد في القرن الثامن عشر وما بعده ، عقب العثور على النماذج البديعة التي خلفها الفن الاتروسكي ، لا يمكن استعراضها هنا جميعاً ولا يفيد عرضها شيئاً . والقول بان اكثرية علماء العصر يأخذون بالنظرية التي تُغَلّب الاصل الشرقي للاتروسك وترجحه ، لا يوجب الاقناع ولا يلزم الاخذ به ، اذ ان معضلات من هذا النوع لا تُحل بالاقتراع وعد الاصوات . فهنالك اليوم علماء بارزون يتبنون هذا او ذاك من الرأيين المعارضين لنظريتنا هذه . فمن الافضل ، والحالة هذه ، الوقوف الى جانب هذه الملاحظة مع العلم ان الوضع الحالي الذي تدعمه الاكتشافـات الاثرية والمناقشات العلمية ، والبراهين التي تؤيد المنبت الشرقي للاتروسك ، تبدو ، بالنسبة لغيرها ، اكثر انسجاماً واقل عرضة للجرح من سواها. اما القول باكثر من هذا ، والذهاب الى ابعدمنه ، ففيه عنت وفيه تغرير وتعلّة بالمستحيل ، اذ ليس في هذه الحجج ما فيـه القطع او الجزم نفياً او إثباتاً .

ومما لا مراء فيه هو ان الموقف الصحيح هو الاعتصام بالنفي ، ولو من اضعف الايمان ، تجـــاه الزعم القائل ان لغـــة الاتروسك ليست لغة هند اوروبية .

قوة الاتروسك واتساع رقعة نفوذهم

بين القرن العاشر على الابعد ، والقرن السابع قبل الميلاد على الاقرب — وهذا المدى الارحب والاوسع الذي تحدده هذه النظريات الثلاث وتضع فيـــه التوقيت الزمني الخاص بالاتروسك — نرى فيه هـذا الشعب ذا نظام قائم ، اذ سيطر على رقعة من الارض تقع بين البحر التيريني ونهري الارنو والتيبر . وعلى هذه الرقعة الضيقة من الارض ، أنشأ الاتروسك عدداً من المدن ، اقدمها عهداً وأنشطها طراً تلك المدائن التي الى الجنوب ، على شواطىء البحر ؛ بينما تلـــك التي قامت في داخل مقاطعة اتروريا الشمالية ، لم يبرز لها نشاط إلا بعد ذاك . فليس ما يميز بنوع خاص ، ازدهار الزراعـة فيها ، إلا ما جاء في المصادر التاريخية عن أعمال تجفيف مستنقعات ماريم *Maremme* الساحلية. إلى ان هذا الشعب برّ عالياً الشعوب التي أهلت بها ايطاليافعاصرتهم وذلك بما كان لهمن النشاط في حقل التعدين وتصنيع الحديد. فقد سيطر على جزيرة إلبا ، الامر الذي زاد من طاقته على تأمين المزيد من الموارد التي كان بحاجة اليها وتوفير خامات الحديد والنحاس التي تفيض بها مقاطعة أتروريا التي رفلت من موارد الارض وما تحت الارض بما لم ترفل به مقاطعة أخرى من المقاطعات الايطاليـــة ؛ وما انصرفت احداها ، عبر التاريخ القديم لاستغلال الثروة المعدنية الكامنة فيهـــا كانصراف اتروريا لها ، وعلى مثل هذا النطاق الواسع . ان مدناً مثل بولونيا وفيتولونيا الواقعتان تجاه جزيرة البا ، وفي منطقة المعادن بالذات ، يُصرف نشاط الاهلين فيهـا ويُقنّى في سبيل استخراج الخامات المعدنية التي تقوم مدن اخرى باعدادها وتوضيبها للتصنيع ، فتفتح هذه الصناعة الباب على مصراعيه امام التجارة الخارجية. وهكذا رأى الاتروسك أنفسهم ، منذ عهد مبكر ، وجهـــاً لوجه مع جزيرتي كورسكا وسردينيا . وليس ما يحول دون ذهاب الفكر او ما يعطل الظن انهم غامروا برحلات أوسع وأبعد الى الجنوب ، وحتى الى الشرق ، مع ان القرطاجيين والاغريق سيطروا على معظم المرافق التجارية وأمنوا الاتصال بها . فمقاطعـة اتروريا رفلت بمصنوعات الذهب والفضة والحديد ، وأدوات الفخار والخزفيات الثمينة التي كانت تصنع في اليونان وتستورد منها ، من كورنثس اولاً ثم من اثينا ، فتجد عند الاتروسك رواجاً عظيماً . فمن أضرحة الاتروسك ومدافنهم اطلع العالم على أجمـــل الخزف اليوناني الذي يرجع صنعه الى القرن السادس وبدء الخامس قبل الميلاد. وكان الشبهان ومصنوعاته مادة اولية للتصدير للخارج . وهكذا توفر لبعض الطبقات الاجتماعية لدى الاتروسك غنى لا ينكره احـد ، وهو ثراء كان الى جانب القوى البشرية والحربية الأخرى التي توفرت لهذا الشعب عاملاً قوياً من بين العوامل العديدة التي أمنت له الازدهار والانتشار في رقعة واسعة من بطاح ايطاليا قديماً .

فقبل غروب القرن السابع سيطر الاتروسك على ثغور نهر التيبر ومعابره ، وذلك باحتلالهم

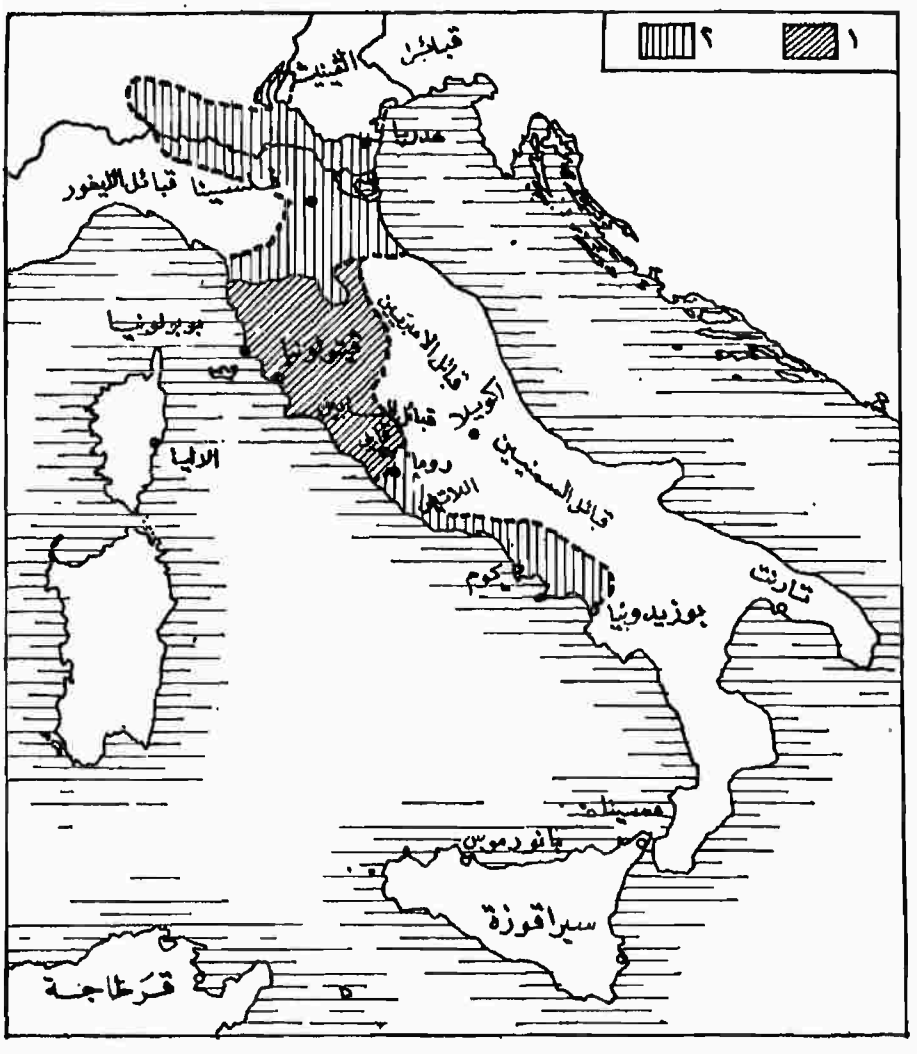

الشكل ٢ – خريطة قديمة لايطاليا تبين انتشار الاتروسك

١ – اتروريا ، ٢ – مقاطعات احتلها الاتروسك

موقع روما ، وبهذا اقاموا لهم رقبة جسر نحو اللاطيوم وايطاليا الجنوبية. اما في القرن السادس فنراهم يحتلون مقاطعة كمبانيا حيث أسسوا مدينة كابو المشهورة واستطاعوا ان يقيموا بينهم وبين فريق من الاغريق من سكان مدينة بوزيدونا حالة من التفاهم والتراضي . وكانت هـذه المدينة التي تعرف اليوم بمدينة بيستروم مرفأ نشيطاً تؤمه السفن كما كانت ملتقى للطرق البحرية التي ربطتها بخليج ترانت ، عبر جبـال البروتيوم . فكانت بوزيدونا هذه بمثابة البوابة الاغريقية لمقاطعة كمبانيا الواقعة تحت الاحتلال الاتروسكي . اما علاقة الاتروسك بالاغريق ، فكانت على الغالب تتسم بالحروب ، كما انطبعت علاقاتها مع قرطاجة التي اضطروا ان يتنازلوا لها عن جزيرة سردينيا . وعلى هذا قس علاقاتهم مع مدينة مساليا (مرسيليا اليوم) . وقاموا بحروب مكشوفة مع اغريق مدينة فوقيه *Phocée* الذين جلوا عن مقاطعة ايونيا بعد ان اكتسح الفرس شواطىء آسيا الصغرى الغربية واستوطنوا الساحل الشرقي من جزيرة كورسكا التي اضطروا لمغادرتها عام ٥٣٠ ، بعد معركة ألاليا البحرية ، (اليريا اليوم) ، ثم حروبهم ضد مدينة كوم القائمة في قلب مقاطعة كمبانيا، واخيراً وليس آخراً، حروبهم ضد الجوالي الاغريقية في الجزر الايولية (ليباري اليوم) الواقعة الى الشمال من صقلية .

والمد الاتروسكي يبدو جلياً واضحاً ، في الاتجاه المعاكس ، أي في الشمال ، في أواخر القرن السادس . فبعد ان اجتازوا سلسلة جبـال الابنين احتلوا مدينة فلسينا ومنطقتها فأصبحت قاعدتهم الكبرى للانطلاق منها الى الشمال ، ومنهـا بلغوا سهل نهر البو وسيطروا على معظم القسم الشرقي من مجرى هـذا النهر بما فيه ساحل البحر الادرياتيكي، الى الجنوب من مصب نهر الأديج .

عبثاً نحاول التأريخ لهـذه الفتوحات التي يقوم بها الاتروسك والتي تؤيدها الكشوف الأثرية الحديثة، وان كان المؤرخون القدامى لا يأتون على ذكرها الا لماماً وبايجاز كلي يقرب من التقتير. ان فقر المصادر حول المد الواسع الذي بلغه الاتروسك وندرتها يبعث في نفس المؤرخ الأسف الشديد. فاذا ضربنا صفحاً عن كثير من التأويلات والآراء العارضة نقف امام نظريتين متعارضتين متعاندتين . فاما ان نرد هـذا التوسع يحققه الاتروسك ، الى عصابات من المغامرين اقتنمت أثر رائد مغامر حالفه الحظ ، جرّت وراءها تباعاً جوالي متتالية اقعدت نفوذ القوم ومكنت له ، واما ان تكون تمت هذه الفتوحات وفقاً لارادة مدبرة وخطة محكمة موضوعة ، أعدتها حكومة مركزية ، تبينت عن كثب وحدة ايطاليـا الطبيعية فراودتها فكرة تحقيق وحدتها السياسية . ولكل من هاتـين النظريتين من البراهين والحجج ما يؤيدها إثباتاً ودفعاً . وهذه الحجج المؤيدة والدافعة معاً ، تنعكس ولو غامضة ، في هذه الحدثان التي وسمت العلاقات بين الاتروسك وروما في تطلعها الى السيطرة والغلبة ، كما تبدو من خلال الاقاصيص الاسطورية عند الرومانيين ومـن

التزاويق التي تزين قبر فرنسوا (١). ومهما يكن ، وسواء أجاء الأمر قضاءً مقدوراً او تدبيراً مقصوداً ، فالانجازات التي حققها الاتروسك تتسم بالعظمة ، وعلى ايطاليا ان تنتظر طويلاً ليطلع على ارضها وفي سمائها مثل هذه المآتي وعلى مستواها الرفيع ، تقوم بها روما التي وفقت الى إقامة وحدة تجاوزت ، بكثير الوحدة التي أنشأها الاتروسك في اواخر القرن السادس قبل الميلاد.

التنظيم الداخلي

وكم نتمنى لو نستطيع ان نعرف ماذا كان عليه الاتروسك ، من نظام داخلي . فالاطلاع على هذا الامر عامل قوي يساعدنا على تفهم الاهداف التي ترسمها هذا الشعب والصفات التي لابست السلطان الذي انشأه . الا ان وضع المصادر التي لدينا كثيراً ما يحدو بنا لتفادي الاحكام الرخيصة ؛ والانكى ، ان نعمم على كل المدن الاتروسكية ما نراه قائماً في روما القديمة ، بينما وضع روما وضع خاص بها ، مقصور عليها وحدها .

مما لا ريب فيه قط ان المجتمع الاتروسكي مجتمع ارستوقراطي الطابع . يشهد على ذلك ما نراه من مظاهر الغنى والبذخ تتكشف عنها معالم قبور القوم ومدافنهم اذا ما قارناها بالمقابر المتواضعة لجمهرة السواد . كانت مقاطعة اتروريا مثوى عدد طائل من الاسر الكبيرة ، ترتبط فيما بينها بروابط الانساب والتضافر والتضامّ ، كما نلمس ذلك من خلال بعض المسميات والكنى التي لم يكن ما يحاكيها في عالم البحر المتوسط . فمن العادات التي سار عليها الشرق والشرقيون ان يأتي اسم الشخص متبوعاً باسم والده لتمييز الناس بعضاً عن بعض ، بينما راح بعض الشعوب الاسيوية ، كالليكيين مثلاً ، ينتسبون للام ، الامر الذي حمل فريقاً من المؤرخين على الظن بسيرهم على النظام الاموي . فقد اتبع الاتروسك الطريقتين المذكورتين واستعملوا معهما اسلوباً آخر او اقتصروا عليه وحده . فاسم الشخص يصبح نعتاً او وصفاً للكنية او الشهرة . والجدير بالملاحظة هنا حرصهم على الانساب والاصلاب ، الامر الذي ساعد على تكوين مشجرات عائلية معقدة . والظاهر انهم عرفوا ، هم ايضاً نظام الاتباع ، (*Clients*) الذي نهج عليه الرومان . فمن المفيد كثيراً تحديد تاريخ الاخذ بهذه النظم ، اذ لا بد ان يكون تطور المجتمع الاتروسكي قد ساعد كثيراً على تركيز الطابع الارستوقراطي الذي برز في تاريخ متأخر ، عندما شبت روما وترعرعت ، واخذت تؤثر بعيداً فيما حولها . فاتخاذ الاسم والكنية وقيام نظام (قبلي) متماسك شبيه بما عرف عند الرومان بـ (*Gens*) هو من هذه الاعراف التي

---

(١) هذه النقوش والتزاويق هي من حقبة متأخرة ترجع الى اواخر القرن الرابع والقرن الثالث قبل الميلاد . ولو كان بالامكان استنطاقها كما يجب لكشفت لنا كيف ان اهل مدينة فولاي (*Vulei*) تمثلوا حوادث جاءت على ذكرها تقاليد الرومانيين وحكاياتهم . فهي تصف معارك وجنوداً يخوضون وقائع واشتباكات حربية . فبين اسماء جنود الاتروسك والرومانيين شبه عظيم ومحاكاة ظاهرة . من بين هؤلاء المحاربين الذين يلاقون حتفهم في المعركة جندي يدعى *Cneve Tarchunies Rumach* الذي يرادفه باللاتينية *Cnaeus Tarquinius Romanus* فنحن امام جندي روماني من آل تاركينوس.

سارت عليهـــا امم ايطالية عديدة . فلمن الفضل في هذا كله ، أللرومـــان ، يا ترى، ام للاتروسك ؟

ينتظم السلك الاجتماعي عند الاتروسك في قيام مدن عندهم . فقد جاء الكتبة الاقدمون على ذكر ما اسموه بـ « الدوديكابول » اي حلف الاثنتي عشرة مدينة الذي قـــام في مقاطعة اتروريا . غير ان القوائم العـــديدة التي جاءت على ذكر هـــذه المدن وتعدادها تختلف فيما بينها وتتعارض فيها الاسماء وتتباين . ومثل هذا التباين يطبع كذلك قوائم اتحادات المدن الاثنتي عشرية التي قامت على شاكلة الحلف الاول في كل من مقاطعتي كمبانيا وسهل البو . والغالب على الظن ان مجالس اتحادية كانت تعقد اجتماعاتها ، الفينة بعد الاخرى ، في الميدان (الساحـــة) المحيطة بالمعبد العـــام المعروف عندهم *Fanum Voltumnae* المجهول الموقـــع . وقد سارت الامبراطورية الرومانية فيما بعد على تعيين « محافظ او والي اتروريا » الذي ربما كان رمزاً لاستمرار رئيس الاتحاد . والذي يبـــدو من بعض الحوادث الطارئة ان الوئام لم يكن ليرفرف دائماً بين المدن الاتروسكية، حتى في العهد الذي بلغت فيه المدنية الاتروسكيـــة أوجها، وان روابط التحالف التي كانت تشدها بعضاً الى بعض ، تأخذ في التراخي والانحلال في بعض المناسبات .

وهذا الوئام نفسه لم يكن ليطبع دوماً الحياة الداخلية في المدن نفسها . فقـــد قامت في تاريخ متأخر جداً، منافسات طبقية، سياسية واجتماعية، بين الارستوقراطيين وطبقات الشعب، وذلك ربما بتأثير ، من رومـــا ، في بدء عهدها الاول ، وفي اعقـــاب تطور داخلي من العسير تتبع خيطه . ويظهر هذا الوضع بجلاء ابان الحقبة التي بلغ فيهـــا الاتروسك عظمتهم ، اذ كانت تبرز هذه الخصومات بمناسبة انتخـــاب السلطات العامة وتعيين ممثليها في دوائر الحكم . سار الاتروسك في بدء امرهم على نظام ملكي ، وكان الملك عنـــدهم يعرف باسم (*Lucumon*) ، وليس بالامكان الجزم في ما اذا كانت الملكية وراثية او انتخابية لمدى الحياة او لمدة معينة . وقد يكون من المناسب ان نتصور الامور على مثل ما كان عليه الوضع الاجتماعي في المـــدن اليونانية التي طبع تطورها، تطور الحكم والادارة في الادارة الاتروسكيـــة . فقد دقت سلطة الملك واسترقت تباعاً في المدن اليونانية . وعلى كل ، فالقول بغلبة النظام الاوليغرشي او حكم الاقلية ، امر يقبله العقل ولا يثير اي اعتراض . وتطور مدلول لقب الملك مع الزمن ، فاطلقوه تارة على كبير القضاة بعد ان جلس الملوك قديمـــاً للقضاء طويلاً ، وطوراً على شيوخ او امراء الاسر الكبيرة التي كان الملوك يختارون من بينها . وأحيط الملوك والقضاة بمراسم عظيمـــة من التكريم والتبجيل والتعظيم سرت من الاتروسك ، فيما بعـــد ، الى الشعب الروماني الذي سار عليها . وعثر المنقبون ، في مدينة فيتولونيا على اداة حديدية تمثل اضمامة من القضبان *Faisceau* يبرز من بينها فأسان . ويعزو الاقدمون ، باتفـــاق الآراء ، الى الاتروسك فكرة السلطـــة التي يمثلها حَمَلة الفؤوس الـ *Licteurs* الذين كان عددهم يوازي عدد المدن الاثنتي عشرة المتحالفة، مـــا يدل على ان النظام الذي اوجدوه هو نظام اتحادي اكثر منه بلدي، والكرسي المشيخي، والشال

الروماني الموشى بالارجوان ، والرداء الارجواني الذي يتدثر بـه قائد الحرب ، واحتفال النصر وما يصحبه من مراسم التعظيم والتبجيل، وغير ذلك من الشارات التي تنم عن السلطة العليـا والمسؤولية. فالنظم الاتروسكية اثرت بعيداً، ولا شك، في النظم والاعراف التي سار عليها الرومان فيما بعد وكان للاتروسك فضل السبق اليها والعمل بها. فراح الرومان يقتبسونها ويطبقونها في بلادهم.

ديانة الاتروسك

وعلى هذا النحو نهج الاتروسك في ديانتهم وتمتعوا في روما بشهرة واسعة، اذ ان من مميزاتهم المفردة تضلعهم بأمور الدين والامتثال الحرفي لوصاياه ونواهيه .

ليس لعمري ما يميز ديانتهم وأساطيرهم الدينية. فاذا ما وقفنا عند بعض أسماء آلهتهم وجدنا ان بينهـا ما هو اتروسكي محض مثل الاله تين (*Tin*) الذي يرادف الاله جوبتير ، والاله طوران *Turan* الذي يوازي الالهة فينوس او الزهرة . ويقوم بين مسميات هـذه الآلهة من المواصفات المتشابهة ما يشير الى أصلها الاغريقي اللاتيني . وبعض الآلهة الأخرى ، أمثـال : اوني *Uni* (جينون ، ومنيرفا ، وماريس (مارس)هي ايطالية الاصل او المصدر، او بالاحرى كيّفها الاتروسك بعد اقتباسها بحيث برزت ايطالية الوضع او المنشأ . بينما هنالك آلهة أخرى مسمياتها اغريقية الاصل جرى اقتباسها رأساً من الاغريق، منها مثلاً هرقل *Hercle* او هيرقليس الذي له شأن أكبر عند الاتروسك منه عند اليونان ، بينما الاله ابولو وشقيقته ارتوم *Artume* او ارطميس لم يطرأ عليها، لدى اقتباسها، أي تعديل او تبديل. اما مناقبية هـذه الآلهة والصور المشبهة لها والاساطير المتناقلة بشأنها، والأقاصيص المروية عنها فبينها تباين عظيم من قطر وآخر. ومن الخير والمفيد جداً ان يقوم من يتصدى لشرح الوثائق التي تمتّ اليها ويحدد منها التـاريخ الصحيح . فالمصادر التي نعوّل عليها هي متأخرة جداً وتشهد عالياً بعملية الهـلّـينة، والتأغرق التي خضعت لها ، وهي عملية تمت تدريجياً وعلى مراحل ، على ضوء الصور والرسوم التي ألهمتها وأوحت بها ديانة اليونان وأساطيرهم .

العرافة والطقوس الدينية

مما يميز الاتروسك ، بالنسبة للأقوام الغربيـة على الاقل ، من وجهة الديانة التي تمتّ بأكثر من سبب الى ديانة بلاد ما بين النهرين ، هـذا الخضوع والخشوع والاستسلام المطلق لمشيئة القوى العليا التي تحركها مقاصد خفية . فالانسان في ضعفه المتناهي، لا سبيل امامه إلا الاستبانة عن هذه الارادة والكشف عنها لئلا يأتي عملاً لا تكون راضية عنه ، وان يبذل في جميع حالات الشك وقلة اليقين ، كل شيء في سبيل استمالتها وكسب رضاها . كل الظواهر الخارجية هي ، من حيث المبدأ ، إعلان عن امر ما ، وايذان له ، بشرط ان نتبينه وان نحسن تفسيره وتأويله . فجميع ظاهرات هذا العالم تترابط ، والحالة هذه ، فيما بينهـا وتتماسك بقوة؛ ومدلول كل ظاهرة لا بد ان يتعدى بكثير المسببات، مهما بدت طبيعية . ففي رد الاسباب الى أصولها الصحيحة ، تعبير عن رغبة الآلهة في تحذير البشر منهـا وإنذارهم بشرها . وهذه الانذارات تبرز بأجلى بيـان يمكن للانسان ان يتصوره ، بواسطة

الصواعق والرعود . غير ان أية ظاهرة طبيعية أخرى، مهما دقّ شأنها ، يغاير مظهرها النظام الطبيعي للأشياء ، عدها الانسان من الخوارق وتطير منها . وهنالك علامات وإشارات لا يمكن ان يتبينها الانسان ويفقه معناها ومدلولها إلا بعد جهد وعناء وبحث واستقصاء . وهذا البحث هو على نوعين : الاول زواجر الطير ، كطيرانه من جهة معينة من الجو ، وفقاً لمواصفات دقيقة تلابس الاتجـــاه وتطبعه . والثاني هو فحص احشاء الذبائح ، ولا سيما الكبير منها ، وموضع اجزائها الدقيق، اذ ان كلا من هذه الاوضاع يرمز الى إله معين من الآلهة، كما يشير بالتالي الى ما هو وضع هذا الاله من الرضى او عدمه. كل هـذه الأشياء والأمور تفرض وجود علم باصول، لا يحسنه إلا الضالعون به المتمكنون مـــن أسراره . وكشف الغيب اختصاص يقتضي له التمرس الطويل باحكام تقاليد العبادة والكتب الدينية. فاذا ما روجعت هذه الكتب في الوقت المناسب وجد فيها من يحسن قراءتها وتفسيرها واستنطاق رموزها، الجواب الشافي عن كل ما ترغب الآلهة فيه ، كما يقف منها على الأساليب والطرق والأعمال التي يتوجب على الانسان ان يتقيد بها بكل دقة. ويكفي الانسان ان يتمسك حرفياً بهذه المراسم ويطبقها بنصها حتى يخامره الامل بامكان التأثير على هذه القوى العليا التي بيدهـــا مصيره . ويرافق عملية الكشف عن رغبة الآلهـة ومقاصدها الخفيـة والبعيدة عن ادراك البشر، القيـــام بعدد لا يحصى من الأدعية والابتهالات والتضرعات والإشارات التي لا بد من الاتيان بها على نحو معين . فقد تركت لنا هـذه الكتب وصف المراسم الدقيقة التي يجب التقيد بها عند إنشاء او تأسيس مدينة ما ، واتجـــاه الشوارع وتقاطعها عمودياً ، وكيفية طمر القرابين المقدسة في حفرة معينة ، ومدى الدائرة المقدسة التي يجب رسمهـــا على المكان الذي تنشأ عليه هذه المدينة ، تشقها سكة محراث ، باستثناء مواقع الابواب الخارجية . والمراسم المتعلقة بانشاء المعابد والهياكل، هي أدق مما وصفنا بكثير. اما ما يترتب على الانسان من اعمال وتصرفات بعد كشف الطالع ، فعدد كبير من المراسم والمناسك والحركات المختلفة ، عليه ان يتمها ويتقيد بأصولها وأحكامها وفقاً لتعليمات الكهان وارشاداتهم ، ووفقاً لمناهج لا يصح الخروج عليها ، من قرابين وأضاحٍ وتكريسات ، وولائم تقام على شرف تماثيل الآلهة وانصابهم .

ومن الطبيعي ايضاً ان تجري خصوصيات الحياة وفقـاً لمراسم دينية دقيقة فيحمل النـاس التعاويذ والطلاسم التي يرد معظمها من مصر . والسير وفقاً لهذه الاعتقـادات يفضي بالمرء الى النجامة والمجوسية ، كما يظهر من بعض الآثار التي وصلت الينا من ذلك العهـــد . غير ان قلة المصادر تحول دون وصف هـذه المراسم الدينية بالتفصيل ، ولا تستفيض الا بذكر المراسم والاحتفالات الخاصة بممارسة الوظائف الرسمية العامة التي انتقلت بحـذافيرها الى روما ، لدى اقتباسها النظم السياسية التي اقتبستها عن الاتروسك والتي تؤلف معها قسماً متمماً لها . الم تكن اتروسكية الاصل، هذه الطلاسم والحيوانات المؤلهة التي كان يحملها قضاة روما؟ وهذه الاحتفالات الصاخبة التي كانت تقام في طول البلاد وعرضها بمنـاسبة الظفر والنصر في الحروب ؟ الم تكن

اتروسكية علوم الفأل والعصا المعقوفة التي كان يستعملها العرافون في كشف الطالع ؟ وهذه العيافة ، اي عادة فحص امعاء الذبائح واحشائها ؛ اتروسكية الاصل عادة التسليم بالخوارق وكل المراسم والتوسلات التي يجب الاعتصام بها لابعادها وابعاد المصائب التي تجرها. فالاحترام المقرون بالاعجاب الذي كان يكنه الاتروسك للنظام ولعلوم الدين كان الباعث الاول على الاحتفاظ بعلوم الدين وعلى نقلها للغير .

الحياة الاخرى

ساعد الكشف العلمي عن القبور ونبش ما كانت تحويه من تزاويق وامتعة ومفروشات ، على تكوين صورة عن فكرة الموت والحياة الاخرى عند الاتروسك قديماً . فالكل كان يعتقد بالحياة والبقاء بعد الموت . وكان الاحياء يحاولون تعويد الناس على فكرة الموت عن طريق الجنائز ومراسمها ، وعن طريق اقامة المآدب والملاهي ، وحرصهم على حفر صورة الميت وزوجته على الضريح ، محاطين بكثير من الحاجيات المنزلية كالاسلحة والحلى وما شاكل . ان ايجاد الجو العائلي في القبر يجعل المرء يعتقد ان الميت انما هو حي ، يعيش بعد ، وبالتالي فما من موجب او داع قط للاسف والاسترسال للحزن العميق ، كما توحي بذلك الرسوم القديمة التي تغشى جدران القبور . صحيح ان هذه الرموس المزركشة هي وقف على الشخصيات الكبيرة ، ولكن ما عسى ان يكون لعمري ، مصير ممثلي الطبقات الفقيرة المسكينة ؟

سار الناس طويلاً على عادة فرش القبور وتأثيثها بالحاجيات المنزلية . الا اننا نرى منذ القرن السادس فكرة جديدة تبرز ، ولا تلبث ان تتحكم بالاذهان منذ القرن الرابع . من النظر ملياً في الرسوم القريبة يتضح ان جميع الموتى ، حتى من كان بينهم من ذوي الجاه ورفعة الشأن ، هم في سبيل رحلة طويلة بعيدة في مملكة الظلام ، وهي رحلة تبعث الاسى الشديد في النفس، يدفعهم أبالسة تصطك لمنظرهم الفرائص، وقد انخطف منهم اللون وشحب المنظر وكشروا عن انياب حادة ، اجسامهم مزيج من اعضاء الانسان والحيوان ، لهم من الطيور الخواطف مناسرها الحادة ، ومن الحصان او الحمار اذنه ، حاملين بايديهم مطرقة لتوجيه ضربة قاضية الى المسافر . وها هو عزرائيل(*Charun*) يخطف الميت من بين ذويه فتتراكض الافاعي والثعابين منسابة حوله تفحّ في اذنه . فيا لها من مملكة تبعث الرعب في النفس والهلع في القلوب لأركونها رأس ذئب ، وقداختفت البسمة امام مرأى تنين مفترس يحمل بين يديه عدة التعذيب .

فالاثر الهليني يبدو واضحاً في بعض هذه الافكار كما يبدو جلياً في ميثولوجية جهنم . واسماء ملك مملكة الظلام وزوجته فرسبناي *Phersipnai* عند الاتروسك هي نفسها عند الاغريق وهما هاديس وبرسفوني. فاذا كان *Charun* ملاك الموت عند الاتروسك، يأخذ اسمه من *Charon* ملك الموت عند الاغريق ، وعابر الارواح فوق نهر الستيكس (*Styx*) هو النهر الذي يحيط سبع مرات بجهنم حسب معتقدات الاغريق ، يتلبس عند الاتروسك دوراً وصفات

مخيفة. وهؤلاء الأبالسة والشياطين الذين قال الاتروسك بوجودهم ونقلوا الاعتقاد بهم عن أساطير الشرق ، إنما دخلوا الميثولوجيا الاتروسكية عن طريق الاغريق . فروح التسليم والرضوخ التي كانت تلطف عند الاغريق من لوعة المحتسب او المفجوع بأحد أعزائه ، تختفي تماماً عند الاتروسك ليحل محلها عند الميت ، روح متشائمة تعكس تماماً صورة حياة بشرية حطمتها قوى غاشمة لا تلين ولا تزحم .

الفن الاتروسكي

يُبرز هذا الفن بجلاء المؤثرات التي تلقاها من الخارج وخضع لها، وهي مؤثرات شرقية ، في بادىء الامر ، اتصلت بالاتروسك عن طريق الفن الاغريقي القديم الذي عرف هو ايضاً طوراً شرقياً ثم هلينياً بعد ذلك. ولا شك عندنا في ان بعض رجال الفن من الاغريق استدعوا للعمل في مقاطعة اتروريا ، فأفاضوا من فنونهم على ما كان معروفاً عند الاتروسك من أصول هذا الفن . ويحاول النقاد المعاصرون جاهدين ، ان يتبينوا الصفات المميزة للفن الاتروسكي الأصيل ، وهي صفات ملازمة فيه ، مفردة له ، إنما تبقى محدودة المدى والأثر لئلا تذهب بالانطباع العام .

وهذه الصورة تصدمنا من الوجهة الفنية بما فيها من نقص فاضح . فقد استخدم الاتروسك الشبهان (البرونز) والفخار ، على نطاق واسع . وكانوا يدفعون غالياً في سبيل الحصول من الخارج على المواد الثمينة : كالعاج ، والذهب ، والفضة ، فلم يعنوا بنقش الرخام ، هذا الرخام الذي غالى الاغريق ، ومن بعدهم الرومان ، باستخدامه على نطاق واسع، وحفره ونقشه . كثيراً ما عوّلوا في عمائرهم، منذ القرن الخامس، قبل الميلاد ، على العقود والقناطر التي اخذوا استعمالها من الشرق وأدخلوا عليها تحسينات جمة، بينما أهمل الاغريق الاعتماد عليها . ويقتصر على الغالب، الأثر الذي احدثوه هنا على فروق بسيطة .

هنالك أنواع شتى من قبور الأغنياء. منها ما نقش في قلب الصخر الصلد او تم بناؤها، تنتظم حُجَره امام ممر ، او تأتي على طراز منزل عادي . وأهم هذه القبور هيلَ التراب على سقوفها وشيد حول السطح جدار مستدير ليمنع سقوطه . هنالك قبر او ضريح عثر عليه بالقرب من شرفتري *Cerveteri* ، بلغ قطره ٤٨ متراً . أقيم فيه خمس ممرات ، تمر من الخارج الى الداخل ، ثم يبتدىء ممر سادس ، مستدير الشكل ، هو الممر الوحيد الذي يبدو ان اللصوص ونباشي القبور احترموه لأنهم لم يدروا به ، فلم ينهبوه . والقبر المذكور جرى استخدامه مدفناً لأسرة كبيرة طوال قرنين من الزمن ، أي من القرن السابع الى الخامس ، قبل الميلاد . وعندما نبشه المنقبون استخرجوا منه ، في عداد ما استخرجوا، هيكلين عظميين لبعض الارستوقراطيين، وجرة قبرية متواضعة الشكل ، وغير ذلك من الحلي والذهب والبرونز .

والهيكل التوسكاني الطراز الذي ترك فيتروف وصفاً دقيقاً له ، كان يتألف عادة من ثلاث حجرات ، وهي هندسة كانت تتكرر عملياً في كثير من الهياكل ، منها هيكل جوبتير

الكابيتولي ، في روما حيث ترى هذا الاله يعتمد الى الالهين جونون ومينرفا . ولكن آلهة الاتروسك لا تؤلف دوماً ثالوثاً واضحاً ، كما ان بعض هياكلهم كانت تتألف من حجرة واحدة . فاذا كان تأثير الهيكل الاغريقي يبدو واضحاً ، فالهيكل الاتروسكي ، يبدي مع ذلك ، بعض الفروق . من ذلك مثلاً انه يقوم على قاعدة حجرية عالية ، كما ان بوابة المدخل الرئيسي تقوم فوق اعمدة ؛ وهي بوابة ضخمة لا تزدان بشيء من النُصب او التماثيل ، قبل القرن الرابع .

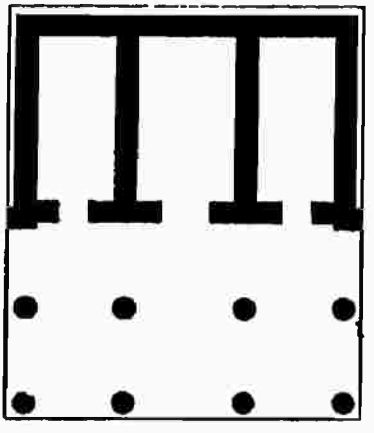

الشكل ٣ – تصميم نظري لمعبد اتروسكي عرضه ٦ أجزاء طوله . على الأعمدة فيه يجب ان تكون ثلث العرض وعرض الحجيرات الجانبية يوازي ٣/٤ الحجيرة المركزية .

والهيكل الاتروسكي ، كصنوه الاغريقي القديم الطراز ، كانت مادته الاولى من الخشب ، اقله الاعمدة والسقف ، الا انه اطول منه بكثير . ولكي يحفظوا الخشب ويصونوه حيثما برز وظهر ، كانوا يغطونه بقوالب من التراب المشوي ، يحلّونها بالنقوش والالوان . وعلى هذا النهج سار الاغريق انفسهم . انما ساحة الهيكل المغطاة بهذه القوالب ، عند الاتروسك ، كانت تتطلب الكثير من القوالب وعناءً كبيراً في التزويق . فالاتروسك يعتمدون هذا الفن بمعزل عن التصميم الهندسي ، ولم يلبث ان اصبح عندهم ابرز معالم النقش ، واعطى آثاراً رفيعة من الدرجة الاولى ، اشهرها واسيرها ذكراً على الاطلاق ، تمثال الزهرة (فينوس) في مدينة فايي (*Veies*) الذي كان يؤلف جزءاً ، من مجموعة فنية لها مقاييس الانسان الطبيعية ، وتمثل احدى اساطير دلف التي تروي حكاية شجار ابولو وهيرقليس بشأن الظبية ذات الرجل النحاسية ، وذلك على مرأى ومشهد من ارطميس وهرميس . وبين الآثار التي اكتشفت ايضاً في هذا المعبد ، معالم تنم عن وجود فئات اخرى . ومن الممكن جداً ان يكون ناحت تمثال ابولو اغريقياً ، الا انه من الارجح ان يكون اتروسكياً ، اذ لا يزال التاريخ يحدث عن شهرة معامل مدينة فايي ومهارة صناعها ، بينهم فولكا (*Vulca*) الفنان الاتروسكي الوحيد الذي احترم التاريخ اسمه ، فاستدعته روما ليشارك ويعاون في تزيين تمثال جوبتير الكابيتولي الذي يمكن ان يضاهي ابرز الآثار الاغريقية من هذا العهد (اواخر القرن السادس ومطلع القرن الخامس قبل الميلاد) وذلك لما في حركة الجسم من حيوية ونشاط ، وبما تفتر عنه البسمة من إغراء ، وبما عليه من نظرة مثيرة تشع على الوجه كله . وهذا التمثال يبز بكثير التماثيل الاخرى التي تمثل الرجال والنساء متكئين الى موائد الولائم ، او تغطي وجه بعض النواويس او الحجرات القبرية . وكثيراً ما تم صنع هذه التماثيل بروح حية ، واقعية ، تقارب أحياناً الرسوم الهزلية ، فيبدو معها ترهل البطن ، وتنافر

أعضاء الجسم ، وبروز العضلات . فنحن هنا ، ولا شك ، أمام آثار اتروسكية الوحي والفن، فيها من الحقيقة العارية ما لا يخلو من طعم ودسم ، بحيث أوت بعيداً بفن الرسم عند الرومان .

ودراسة الآثار الشبهانية والرسوم الاتروسكية تفضي بنا، هي الأخرى، الى ملاحظات شبيهة بتلك التي أبديناها . فقـــد كادت الأولى منها تفقد من الوجود لكثرة ما تعرضت له من نهب وسلب ، اذ ان الرومان حملوا من مدينة اتروسكية واحدة غزوها ، ٢٠٠٠ قطعة مختلفة من البرونز . وقد وصلت الينا تحفة رائعة من هذه التحف هي : « ذئبة الكابيتول » حيث يطالعك فن طبيعي عار يتسم بالانسجام . اما الرسم ، فليس بين معالمه ما يبرز على هـذا الشكل . فهو خير ما يتجلّى في هذه الرسوم التي تغطي جدران القبور ، فتبرز الشخوص في انسجام حركاتها وتوافقها في هذه المشاهد المتحركة التي أشرنا الى تطورها من قبل . واننا لنلمس هنا لمس اليد أثر الاغريق في إحراز هذا التطور ، وفي هذا المرايا البرونزوية التي حرص الفنان على ان يحلي منها القفا بصورة حية .

وصفوة القول، لا يمكن ان ننظر الى الفن الاتروسكي كفن اغريقي محلّي او اقليمي، نوعاً ما، إلا انه فن لا يمكن تفهمه اذا ما ضربنا صفحاً عن مؤثرات الفن الاغريقي ونقله لها واقتباسه لنظرياته ، او تغاضينا عن العديد من الموضوعات الاسطورية التي عالجها وحيّزها في هـــذه الادوات التي صدرها بمقادير هائلة الى ايطاليا والتي قام ينحو نحوها رجـال الفن الاتروسكي من رسامين ومصورين ومفرغين ، ويقلدونها .

انحطاط المدنيـــة الاتروسكية وانتقال تراثها

من الادلة القاطعة على تأثر الاتروسك بالحضارة الهلينية ، الركود الذي اعترى ، الى حد ما ، الفن الاتروسكي خلال معظم القرن الخامس، وهو قرن قام فيه من المشاكسات السياسية والاصطدامات الحربية بين الاغريق والاتروسك ما انقطعت معه العلاقات الثقافية والفنية بين الطرفين. والثابت ان كل ايطاليا الاتروسكية عرفت اذ ذاك ، ازمـــة حربية وسياسية تركت اثراً بعيداً في حيـــاة البلاد الاقتصادية .

فأزمة النظام الملكي في روما ، ونهاية السيطرة الاتروسكية، وقعتا معاً في وقت واحد، اي في اخريات القرن السادس . وراحت فايي ، اقرب المدن الاتروسكية ، تحاول التحكم بمعابر نهر التيبر . فنتج عن ذلك حروب طويلة بالرغم من المواثيق التي تكرر عقدهـا ، والمعاهدات التي كانت تضع حداً لها. وقد انتهت هذه الحروب بعد جهاد عنيف دام قرناً بكامله، باستيلاء روما على مدينة فايي . وبعد ذلك بقرن ونصف ، تمكنت روما من السيطرة على مقاطعة اتروريا ، اذ اشتد منها العضد وازدادت قوة وبطشاً إثر فتوحات اخرى حققتها . ولكن ، ماذا من القضية منذ البدء ، وما الذي كان عليه الوضع في بادىء الامر ؟ فالمقاومة الشديدة التي ابدتها روما ، والانتصارات التي حققتها تباعاً في حروبها ضد فايي لا يُفهمان ، الا من خلال الموقف الحيادي الذي وقفته منها المدن الاتروسكية الاخرى ، فاضطرت هي ان تخوض الحرب وتدخل المعركة

وحدها ، ناهيك عن الهجمات التي تعرضت لهـــا مستعمراتها في الخارج .

اما على ساحل مقاطعة كمبانيا فقد هب سكان مدينة سيراقوزة الاغريق الى نجدة بني قومهم من سكان مدينة كوم (*Cumes*) ، المشتبكة بعراك طويل مع الاتروسك ، وفازوا عليها عام ٤٧٤ ق.م ، في موقعة بحرية كثيراً ما غنّاها الشاعر الاغريقي الأشهر بنداريس ، والتي خلّد ذكراها في النفوس طاغية سيراقوزة هيرون *Hiéron* بتكريسه لإله اولمبيا ، خوذة للعدو وقعت في ايديهم . وما عتّم ان زال اسطول الاتروسك وعمارتهم البحرية ، مما ساعد الاغريق على احتلال جزيرة ألبا ، وإنشاء موطىء قدم لهم في جزيرة كورسكا وعلى ساحل البحر الادريا تيكي الشمالي ، وهاجموا سواحل اتروريا نفسها . وهكذا بعد ان تم عزل مقاطعة كمبانيا وامتنـــع اتصالها بالبحر ، اذ كانت روما تسد المنافـذ اليه ، ومن البر ، وقعت غنيمة باردة في أيدي السمنيين الذين انحدروا اليها من جبال الابنين ، متجهين نحو السهل والساحل ، واستولوا على مدينة كابو في منتصف القرن الخامس . ولم تلبث ان أصبحت سيطرة الاتروسك على هذه المقاطعة اثراً بعد عين . وتلاشت هذه السيطرة كذلك في سهل البو ، منذ مطلع القرن الرابع ، اثر غزو الغاليين لهذه المنطقة واستيلائهم على مدينة فلسينا ، واستبدلوا اسمها باسم جديد هو «بولونيا» الذي لا تزال تعرف به لليوم ، ولم يبق للاتروسك سوى مقاطعة اتروريا بالذات التي لم تعتم ان وقعت تحت سيادة الرومان وسيطرتهم .

وبالرغم من اقتطاع أوصالهم ، صمد الاتروسك في وجه الفتح الروماني . إلا ان مدنيتهم لم تذهب بسقوطهم السياسي . فبعد الركود الذي اعترى هذه الحضارة في القرن الخامس ، عادت اليها حيويتها ونشاطها في القرن الرابع ، عقب زوال سيطرة سيراقوزة التي اقام الطاغية دنيسيوس دعائمها وعرف بقوة شكيمته ان يوسع من آفاقهـا . وراح الاتروسك يعيدون صلاتهم بالحضارة الهلينية . غـير ان الأزمات والحروب التي خاضوها ضد جيرانهم فعركتهم بثقالها ، فتت في عضدهم ، فسيطر على نفوسهم التشاؤم واستسلموا لقضاء القدر الغاشم . وبعد ان رسخت سيادة روما وأعرقت جذورها في الارض اخذت حضارة الاتروسك تأفل تدريجياً لتزول تماماً مـــع ظهور المسيحية . وبعد ان تـَلـَيـْتـَنـَتْ البلاد ، دخلت حضارتهم في خبر كان ، ويأتي مورخو الرومان على ذكرها لماماً ويروون أخبارها نتفاً مبعثرة .

ولم تنتظر هذه الحضارة ساعتها الاخيرة لتنقل للناس تراثها المجيد . فقد اقتبست الكثير من عناصرها المقومة عن الاغريق ، وهو اقتبـــاس يبدو أكبر قدراً وأضخم صدراً اذا ما رفضنا الأخذ بنظرية أرُومتهم الشرقية وتعويلهم في التحضر والنقل ، على الايونيين . ومهما يكن مـــن الأمر ، فبعد ان تبدت للاتروسك إمكانية تحقيق وحدة ايطاليا السياسية ، انصرفوا لتحقيق وحدتها الأدبية ، معتمدين في ذلك على بسط حضارتهم على الأقوام والشعوب الايطالية . وعن طريق الحضارة الاتروسكية تعرفت شعوب ايطالية كثيرة ، تدريجياً ، الى المدنية الهلينية ،

وبالتالي الى الشرق ، فأمدتهم من ذاتهـــا بالكثير من عوامل التحضير والتمدين كالتقنية المادية ، وبنظريات وأفكار واذواق جديدة أفرغتها وسكبتها بقوالب ايطالية الطابع. ويجب ألا يفوتنا التنويه ، على الاخص ، بما لها من فضل كبير على روما بالذات ، مما ألمحنا اليه لماماً في المناسبات العارضة . من ذلك مثلاً ، كما يرجح كثيرون ، نقل الايجدية الى الرومان وان قام من لم يسلم من المؤرخين بهذه النظرية . ومما لا شك فيه ان الرومان نقلوا عن الاتروسك ، في عمارتهم ، الباحة او دار المنزل (*Atrium*)، وهذه الملاهي التي ترافق الجنائز، وكثيراً من عناصر الهندسة المعمارية وقواعد مسح الارض وغير ذلك . فروما مدينة للاتروسك ايضاً بأكثر من هذا : فهي مدينـة لها بكيانها الاول بالنظم الادارية والسياسية التي سارت عليها. فقد نشأت بمعاونتهم ووفقاً للمراسم المتبعة عندهم . وقد حكم روما ، منذ تأسيسها الى قلب النظام الملكي فيها وإعلان الجمهورية ، عام ٥٠٩ ، ملوك مـــن اصل اتروسكي أمدّوا روما بملاكات الجيش وأقاموا أطره وفقاً للمناهج والتنظيمات الاتروسكية .

وهذه المدنيـــة التي كتب عليها الزوال والانقراض ، كانت من أشد العوامل التي ثقفت المنتصرين عليها ، فانتقلت اليهم وعاشت فيهم .